

# ليلى الصباغ

## وكتابها: الجاليات الأوربية في بلاد الشام

### في العصر العثماني

أ. د. عبد النبي اصطيف (\*)

تعدُّ ليلى الصباغ، بإجماع المعنيين بتاريخ البحث العلمي في جامعة دمشق، واحدة من أبرز أساتذتها في ميدان الدراسات التاريخية الحديثة. وفضلاً على كونها من فضليات النساء الدمشقيات خلقاً، وسلوكاً، وعلماً، وعطاءً، فإنها تركت لنا تراثاً قيماً ينبغي تدبره بالنقاش الجاد والعميق، والتطوير الواعد والنشر، لما فيه من خير وفائدة.

وعمل الدكتورة ليلى الصباغ في دراسة الجاليات الأوربية<sup>(١)</sup> في مرحلة حرجة من تاريخ بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر جدير بوقفة تأمل، لأنه عمل رائد أصيل يكشف عن الجانب الأهم في شخصيتها العلمية، وهو السعي إلى تجنب السير في مستن الدروب، والمضي في المنعرجات الصعبة بحثاً عن الجديد، واستكشافاً للآفاق الواعدة، بغرض

---

(\*) أستاذ في جامعة دمشق - كلية الآداب.

(١) انظر: د. ليلى الصباغ، الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العصر العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، (مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٩) مجلدان يقعان في (١٠٧٦) صفحة.

إنتاج المعرفة التي يحتاجها المجتمع، والوطن، والأمة، ويتمكن بها من معرفة نفسه، ومعرفة الآخر، ومعرفة العالم من حوله.

والحقيقة أن كتاب الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العصر العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر هو نص رسالة ليلى الصباغ التي أعدتها بإشراف الأستاذ المرحوم الدكتور محمد أحمد أنيس، والتي نالت عليها درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٦٦، وتأخر نشرها حتى عام ١٩٨٩م، أي نحواً من ربع قرن، ومع ذلك فإنها لم تُتجاوز من جانب الباحثين اللاحقين إلا في بعض جوانبها.

وتكمن أهمية الكتاب/ الرسالة - التي تصدّرها إهداء، يَشِي بإيمان المؤلفة بدور المرأة في تنشئة الأجيال الجديدة من أبناء وبنات، يمضي على هذا النحو: «إلى سيدتي الكاملة أمي» -، في:

• عنايته بحقبة تكاد تكون مهملة تماماً من جانب الباحثين العرب والمسلمين، وهو ما يتضح من النظر إلى مكتبة الكتاب التي تخلو من أية دراسة سابقة لموضوع الرسالة، وهي حقبة مهمة جداً يمكن أن تشرح الكثير مما جرى في المشرق العربي في الأزمان اللاحقة، خاصة لأنها شهدت ألواناً من التفاعل الغني والمتنوع بين المشرق العربي وأوربة على مختلف المستويات: الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

• غنى مكتبته التي تضم مراجع بالعثمانية، والتركية، والفرنسية، والإيطالية، والإنكليزية، والألمانية، فضلاً على الكتب التي سجلت رحلات السياح الغربيين إلى المنطقة، والتي تعدّ مصدراً غنياً للمعلومات عن حال الجاليات الأوربية في المشرق العربي في تلك الحقبة.

• وفضلاً على كل ما تقدّم فإن الكتاب يقدم مسحاً دقيقاً وموثقاً لجذور

الاستعمار الأوربي للمنطقة العربية، وهذا مما غفل عنه الكثير من الدراسات العربية التي عُنت بالتمدد الاستعماري في الوطن العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين.

وعلى أي حال فإن من اللافت للنظر وَعَيِ الباحثة التام لأهمية موضوعها، وهي أهمية تتوضح في دواعي اختيارها له، والتي تشمل:

- ١- الكشف عن دور المشرق العربي في التطورات التي شهدتها مطالع العصور الحديثة، فقد كان هذان القرنان فسحة تفاعل حضاري أثارت في الغرب اهتمامات أدبية وفكرية وعلمية جديدة.
- ٢- الكشف عن الجذور العميقة للاستعمار الغربي للمنطقة العربية.
- ٣- الكشف عن تحول الفكرة الصليبية من مجالها الحربي إلى مجالها الثقافي والفكري.
- ٤- دراسة الامتيازات التي استندت إليها الدول في تثبيت جالياتها على أرض بلاد الشام، والتي اعتمدت عليها للتدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية.
- ٥- تأكيد حقيقة أن الاتصال بين سورية، التي تقصد بها الباحثة بلاد الشام أو سورية الطبيعية (ص ٨)<sup>(٢)</sup> والغرب الأوربي لم ينقطع، بل إن سورية في هذين القرنين فتحت أبوابها أمام أوربة كلها دون تمييز.
- ٦- الكشف عن جوانب اهتمام أوربة بالشرق والسعي إلى فهم طبيعته، وإلى دراسة أحوال سكانه، ولغاتهم وثقافتهم ومجتمعاتهم وحضاراتهم وتقاليدهم، وهذا ما شكل بجملته ما بات يدعى بـ«سحر الشرق».

(٢) تشير جميع الأرقام الواردة بين قوسين إلى صفحات الكتاب المذكور في الحاشية السابقة.

وإذا ما انتقلنا إلى محتويات الكتاب بجزأيه فإننا نجد لها موزعة على تسعة فصول، وعلى ثبت موسع بالمصادر والمراجع، وعلى الفهارس العامة، وعلى ثلاث خرائط.

فأما الفصل الأول فقد خصصته المؤلفة لدراسة الأصول التاريخية للجاليات الأوربية في سورية (ص ١٧-٧٠)، في حين خصصت الفصل الثاني لدراسة أحوال الجاليات الأوربية والامتيازات التي مُنحت للدول الأوربية منذ ضمّ العثمانيين لبلاد الشام إلى الدولة العثمانية (ص ٧١-١٩٣). وأما الفصل الثالث فقد انصرفت الباحثة فيه إلى دراسة مسألة «الامتيازات»، والتي كانت «مسمار جحا» في تعامل أوربة لاحقاً مع تركة الرجل المريض. وأما الفصل الرابع فقد درست الباحثة فيه «إسكالات الشام» (ص ٢٣٣ - ٣٤٢) والمقصود بالإسكالات الموانئ والمدن الشامية التي أقام فيها الأجانب في القرنين السادس عشر والسابع عشر وكانت محطات لتجارتهم ونشاطاتهم المختلفة.

وأما الفصل الخامس فهو معنيٌّ بالحياة الاقتصادية للجاليات (ص ٥٣٣-٣٤٣)، في حين يُعنى الفصل السادس بحياتها الإدارية (٥٣٣-٦٤٠)، ويُعنى الفصل السابع بالحياة الاجتماعية لهذه الجاليات (ص ٦٤١-٧٦٦)، وينصرف الفصل الثامن إلى تدبر الجاليات الدينية (ص ٦٦٧-٨٥٠)، ليختتم الكتاب بفصل موسع هو الفصل التاسع تُجمل فيه المؤلفة نتائج إقامة الجاليات الأوربية في المشرق العربي: والتي تشمل النتائج الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية (ص ٨٥٢-٩١٦).

وأما النتائج الاقتصادية فقد رصدتها الباحثة في جوانب تطور الاقتصاد الشامي في الميدان التجاري والصناعي والزراعي، وفي جوانب من التطور الاقتصادي في مواطن الجاليات.

وأما النتائج الاجتماعية فقد شملت احتكاك الجاليات الأوربية بالمجتمع السوري، وهجرة المسيحيين من الريف إلى المدينة، وظهور طبقة برجوازية غنية من المسيحيين واليهود، فضلاً على الانشقاقات المسيحية في المجتمعات العربية، وهجرات اليهود، ونقل بعض العادات والتقاليد و«حس الشرق» إلى أوربة.

وأما النتائج الفكرية فتمثلت بظهور نهضة فكرية في أوساط الفئات العربية المسيحية، وبدء الطباعة، وظهور تيارات فكرية جديدة في أوساط اليهود ذات طابع ديني قومي، وانبثاق أدب الرحلات والمراسلات، والتوسع في تأثر الأدب الأوربي بالشرق، ونمو حركة الاستشراق، والاهتمام بتدريس اللغات الشرقية، ولاسيما اللغة العربية، والاهتمام بجمع المخطوطات العربية والإسلامية ونقلها إلى العواصم الأوربية.

وأما النتائج السياسية فإنها تتبدى في تنافس الدول الأوربية على النفوذ في سورية الطبيعية أو بلاد الشام، وتمهيد الجاليات الأوربية للاستعمار السافر لها في القرنين التاسع عشر والعشرين.

وأما ثبت المراجع والمصادر فيشمل سرداً بالوثائق، وقائمة بالمراجع العربية والتركية، وأخرى برحلات السياح الأجانب، وثالثة بالمراجع الأجنبية، إلى جانب الفهارس العامة، وثلاث خرائط لحوض البحر المتوسط، والساحل الشامي وشرقي البحر المتوسط، والجزيرة العربية وجوارها الشرقي.

لقد نجحت الدكتورة ليلى الصباغ في كتابها المهم في تجاوز صمت المؤرخين العرب عن الجاليات الأوربية في منطقة مهمة من العالم القديم هي قلبه، بلاد الشام (ص ١٥)، مثلما تجاوزت مشكلات تشعب البحث

وتفرعه، وصعوبة الحصول على الوثائق الأصلية، وضرورة التنقل بين بلدان عديدة للاطلاع على ما في مراكز الوثائق فيها من مستندات، وعلى تنوع اللغات التي تجب مراجعة تلك الوثائق الكثيفة بها (ص ١٥-١٦)، وقدمت عملاً ممتازاً ينتمي إلى الطبقة العالية من طبقات البحث العلمي، هو في نهاية المطاف صدقة جارية عن روحها النبيلة، لأنها قدمت بحقّ علماً يُتفَع به وتفيد منه الأجيال التي تنحني لذكراها الطيبة، إقراراً بفضلها، وإجلالاً لخدماتها الجلّي لهذه الأمة، التي تفخر بأنها أمة من حَمَلَة الرسالة.

\* \* \*